

استمرار وجوده هناك عبر فرضه بالقوة أو بلامح القوة حين أخفقت «التضحيات» السياسية التي لجأ إليها. ويتذكر أهل قرية حناويه قرب صور (على سبيل المثال) والتي اقتحمتها «القوات المشتركة» ليلاً وخطفت وقتلت بعض أبنائها بعد تطويقها وقصفها، كيف ترجم البعض في حركة المقاومة إصرارهم على البقاء إلى ممارسة عسكرية فعلية. كما يتذكر الفدائيون الذين تحولوا إلى شرطة في قرى الجنوب اللبناني مرارة ذلك التحول.

الوسيلة العسكرية إلى أين؟

نقف اليوم أمام أسئلة كثيرة، لها أجوبة محدودة، كلها صعبة. ماذا نريد؟ وهل أن الوسيلة العسكرية لتحقيق الغايات هي الوحيدة الصالحة أو حتى الأهم؟ وإذا كان الرد بالإيجاب، فما هو شكلها وما هي معاييرها السياسية والأخلاقية؟ هل يوجد معيار أيضاً لقياس الفعالية بمعيار المردود الفعلي الذي يبدأ الشعب الفلسطيني باكتسابه وملاسته بعد سنوات من العطاء؟ فنرى أننا فقدنا الأهداف، العامة والمرحلية، فلم يعد بإمكان وسائلنا أن تلائم غاياتنا الغائبة، ولم تعد لدينا الامكانية لتقييم تلك الوسائل وتطويرها أو تغييرها. بل صرنا نفع لمجرد أن الفعل مهم، دون معرفة ماذا سنجني وماذا سيخدم، نهاية، ذلك الفعل. وصار الواحد منا جالساً في مكتبه أو مسترخياً في قاعدته، لا يهتم بحفر خندق فردي مع أنه يعلم أن الطيران الإسرائيلي عائد لاصطياده اليوم، كما في الغد، وكما كان في الامس. لكن مع فقدان الأهداف فقدنا الدافع. وبات يتساءل شعبنا في أماكن تشتته: ماذا استقدنا وماذا اكتسبنا بفضل دماء الآلاف من آبائنا وامهاتنا واطفالنا؟ فلم يبخل شعبنا بدمه في يوم من الأيام، وكان يدرك أن تأييد العمل العسكري الفلسطيني سيدفع ثمنه غالباً، وقبل أن يكون ثمن اقتحام كريات شمونا، مثلاً، مسح نصف مخيم النبطية، حسب المعادلة العسكرية الفلسطينية - الإسرائيلية. لكن شعر هذا الشعب أيضاً، بعد مرور السنوات، بأن هناك تضحيات كان من الممكن تجنبها أو تخفيضها (ولو بواسطة بناء ملاجئ أفضل!) وبأنه كان من الممكن تحقيق مردود أكبر لحجم تلك التضحيات.

يجب على كل من يقترح تبني استراتيجية فلسطينية تشمل العمل المسلح أو تؤدي إلى سفك الدماء (أفلسطينية كانت أم غير فلسطينية، لا فرق) أن يتأكد أولاً من استنفاد كافة السبل الأخرى قبل أن يلجأ إلى الوسيلة العسكرية كشكل نضالي. يجب لذلك أن يحدد الهدف المنشود بوضوح لأن ذلك، وحده، يسمح بتحديد الوسيلة المناسبة بوضوح أكبر تأميناً لبدء تطابق الوسائل مع الغايات، والا ينشأ وضع يتم فيه استخدام أساليب غير مناسبة تؤدي إلى خسائر وعذاب بلا داع وبلا طائل. ويجب التذكر أن مئات وآلاف الرجال والنساء والاطفال سيدفعون ثمن كل استراتيجية. ومهما كانت النيات، إلا أنه لا يحق لأحد أن يأتي بالموت لغيره لأنه مُهمل وغير مستعد لاجهاد نفسه قليلاً لتقدير الموقف بدقة وتقييم التجارب للتعلم من دروسها وتغيير أساليبه عند الضرورة. فهل انه لا يابه لعواقب أعماله؟